لُعَابُ الأَفاعى القاتلات لعابُهُ وأَرْىُ الجَنَى اشتارتْه أَيد عواسِلُ[1]
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت عليه شعاب الفكر وهى حوافلُ
أطاعته أطراف القنا وتقوَّضَتْ لنجواه تقويض الخيام الجحافلُ

فصوّر القلم حادًّا قاطعاً كالسيف يصيب المقاتل ، بل إنّ لعابه سام كالأفاعى يخافه الأعداء ويحبه الأصدقاء ، ولأدبه صيت بلغ مشرق الأرض ومغربها ، يفعل فعل الجيوش فى الأعداء ، يقوض الخيام وينزل بالخصوم أقسى الهزائم .

وهذا وصف بديع لأثر البيان فى نفوس السامعين ، جعله الشاعر من القوة والهول ، بحيث قارنه بالجيوش الزاحفة والجحافل الجرارة . والبحترى مدح هذا الوزير نفسه فقال فيه :

لتفنَّنتَ فى الكتابة حتّى عطَّل الناس فن « عبد الحميد »
فى نظام من البلاغة ما شـ لكَّ امرؤ أنه نظام فريدِ
وبديع كأنه الزهرُ الضَّا حك فى رونق الربيع الجديدِ
مشرق فى جوانب السمع ما يخـ لقه عَوْدُهُ على المستعيد

فهو عنده يعطل بلاغة عبد الحميد الكاتب ، وهو فريد فى أدبه يحوى من البديع فى كتابته ما يحوى الزهر الضاحك فى الربيع ، يشرق فى جوانب السمع ما يؤذيه عود أو ترديد ، وما يمل سماعه المستعيد ؛ فيه حجج عظيمة تخرس الأعداء وألفاظ كريمة كالجواهر المفردة ، وفيه معان تفوق معانى الحطيئة ولبيد بن ربيعة ، بعيد عن التعقيد قريب من المراد . وهكذا بسط جمال القول فشبهه بالعذراء فى جماله ، ووصف قوته وأثره فى النفس فجعله كالنغم الحلو تألفه الأذن

(١) الأرى : العسل — الجنى : كل ما يجنى — اشتارته : جنته وقطفته .